بحث تاريخي نقدي في

ألف ليلة وليلة

للدكتور احمد ضيف

هذا الكتاب هو أشهر الكتب القصصية في لغة العرب بل في جميع اللغات . فلقد قال بعض الباحثين من الاوربيين أنهُ لم يفقه في شهرته غير « التوراة » لانهُ أكثر الكتب قراءة وأوسعها خيالاً وأعظمها غرابة وأحفلها اسطورة وخرافة . لذلك ذاع امره في عالم الادب في الشرق والغرب فهو المثال الذي سار على نهجه كتاب العرب في قصصهم وشغف به الفرنجة فحاكوه في بعض حكاياته الأدبية

ولكن أدباء العرب ومؤرخيهم وصفوهُ بأنهُ كتاب « غث بارد » كما ذكر ذلك « ابن النديم » في « الفهرس » و « المسعودي » في « مروج الذهب » . ذلك لانهم نظروا إلى عبارته واسلوبه فوجدوا فيهما كثيراً من الخطإ اللغوي والبياني فلم يرُقْهم ذلك . ثم رأوا ما فيهِ من مجون وأساطير مما لا يتفق مع التهذيب العقلي والنفسي فلم يُعْنَ أحد منهم بالبحث عما فيهِ من مسائل فنية أدبية او صور نفسية او اجتماعية مبثوثة في كل ناحية من نواحيهِ ولا بما يظهر خلال اساطيره ومجونه من الحقائق الانسانية وسجايا الانسان وأخلاقه . فانصرفوا عن دراسته انصرافاً كليًّا

ولم يكشف لنا عن غوامضه غير المستشرقين من الاوربيين فقد كتبوا فيهِ الكتب الكثيرة والرسائل القصيرة والطويلة . وترجمهُ الادباء منهم الى لغاتهم . وقد ذكر كلّ ما كتب عنهُ وترجم منهُ البحاثة البلجيكي فيكتور شوفان Victor Chauvin في كتابه فهرس الكتب العربية Bibliographie des Ouvrages Arabes فملأ من ذلك اكثر من مجلد من هذا الكتاب . والمباحث التي كتبت في « الف ليلة وليلة » كثيرة مذكور جلها في « دائرة المعارف الاسلامية » عند الكلام عليها . وقد كتب هذا البحث العالم الدانمركي « أسْتُروپ — Oestrup » الذي عني عناية عظيمة بدراسة هذا الكتاب وكتب فيهِ رسالة تقدم بها لامتحان الدكتوراه في « كوبنهاج » وطبعها باللغة الدانمركية عام ١٨٩١ . وهذه الرسالة تحسب من المباحث الجليلة . فقد ناقش فيها المؤلف الباحثين قبله في آرائهم . وقد ترجم ملخص ما فيها الى اللغة الفرنسية وطبع في مذكرات المجمع الفرنسي الشرقي للمباحث الأثرية بالقاهرة ضمن الجزء السابع والعشرين عام ١٩١٢ Memoires publiés par les Membres de l'Institut Français d'archeologie Orientale du Caire. Tome vingt-septieme ومن المباحث الجليلة ايضاً رسالة « فيكتور شوفان » المسماة

La Récension Egyptienne des Mille et une nuits المطبوعة في مدينة بروكسل سنة ١٨٩٩

وهذا البحث الممتع الذي كتب في «دائرة المعارف الاسلامية» و«دائرة المعارف البريطانية» وهناك مباحث كثيرة لبعض العلماء من الانكليز والالمان والفرنسيين والروسيين وغيرهم مما لا يسع المقام ذكره فقد كتب بعضها في مجلات وبعضها في رسائل صغيرة وكلها او جلها مذكور « في دائرة المعارف الاسلامية » . وقد كان للمجادلات التي دارت بين « شوفان — واستروپ » فضل عظيم في الكشف عما تحتويه « ألف ليلة وليلة » من مسائل تاريخية وفنية دوّنت في الكتابين السابقين

﴿ أصل الكتاب وآراء الباحثين فيه ﴾ عند ما ذاع ألف ليلة وليلة في اوروبا اقبل على دراسته علماء الادب والتاريخ من المستشرقين وغيرهم واول بحث ظهر في ذلك كان للمستشرق الفرنسي الشهير «سلفستر دي ساسي Sylvestre-de-Sacy » في سنة ١٨١٧ وقد استمرّ في بحثه الى سنة ١٨٣٣ فكتب كثيراً من المباحث في موضوع هذا الكتاب واصله وسار على أثره في ذلك غيرهُ من المستشرقين

وقد استرشد الباحثون في مباحثهم بعبارة المسعودي الواردة في كتابه « مروج الذهب » اثناء كلامه على « ارم ذات العماد » اذ قال : « وسبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية » . وسبيل تأليفها ما ذكرنا مثل كتاب « هزار افسانه » وتفسير ذلك من الفارسية الى العربية الف خرافة . والخرافة بالفارسية يقال لها افسانه . والناس يسمون هذا الكتاب «ألف ليلة وليلة» وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتهما . وهما « شيرا زاد ودينا زاد » . ومثل كتاب « مرزة وشيماس » وما فيها من اخبار ملوك الهند والوزراء . ومثل كتاب السندباد وغيرها من الكتب في هذا المعنى »

واعتمد الباحثون ايضاً على عبارة « ابن النديم » التي قال فيها : « اول من صنّف الخرافات وجعل لها كتباً واودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الترس الأوّل ثم انغرق في ذلك ملوك الاشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس . ثم زاد ذلك واتسع في ايام ملوك الساسانية ونقلتهُ العرب الى اللغة العربية وتناوله العلماء والبلغاء فهذبوه ونقّحوه وصنفوا في معناه ما يشبههُ واول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب « هزار افسانه » . وكان السبب في ذلك ان ملكاً من ملوكهم اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد فتزوج بجارية من اولاد الملوك ممن لها عقل ودراية يقال لها « شهر زاد » فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها ألف ليلة والى إن رزقت منهُ ولداً أظهرته وأوقفته على حيلتها عليه فاستعقلها ومال اليها واستبقاها »

هكذا يروون السبب في أصل هذا الكتاب . ولكن الباحثين اختلفوا في ذلك لعدم وجود برهان قاطع على ما في كتابي « المسعودي » و « ابن النديم » . ولقد اضطربت أقوالهم في ذلك حتى لقد كان يرى أحدهم الرأي ثم يرجع عنهُ كما فعل (دي ساسي) في مباحثه فقد ظنّ أولاً أن

هذا الكتاب كتب بقلم كاتب واحد في العصر العباسي الاول ثم رجع عن هذا الرأي وقال انهُ كتب بعد ذلك . ثم زيدت عليهِ حكايات وأنه عربي صميم ليس فيه شيء هندي ولا فارسي ورأى المستشرق الالماني «هر von Hammer» غير ما رأى «دي ساسي» واعتمد قول «المسعودي» من ان أصل الكتاب فارسي ثم ضمت اليهِ حكايات هندية ويونانية وعربية وان الحكايات العربية دخلت ضمن القصص الاخرى حول اسم « هارون الرشيد » ومن عاصرهُ وان ابتداء في تأليف هذا الكتاب كان في زمن الخليفة «المنصور» ورأى بعضهم أنهُ كُتب زمن العباسيين على أثر انتشار أخبار الفرس وحكاياتهم على ألسنة العامة ثم زيدت عليهِ قصص اخرى في أماكن وأزمان مختلفة وقد بلغ الاضطراب في آراء هؤلاء الباحثين ان نفى بعضهم كل أثر فارسي أو هندي في هذه القصص كما رأى ذلك العالم الانكليزي « لين Lane » الذي قال أنهُ كتب بقلم كاتب واحد بين سنة ١٤٧٥ — سنة ١٥٢٥ ميلادية . بل رأى بعضهم أن بعض قصصه مأخوذ من «الأوديسي » لهوميروس الشاعر اليوناني القديم وضرب لذلك مثلاً بقصة « السندباد البحري » (راجع :

Homére et les Mille et une nuits, par Victor Chauvin, extrait du Musée belge. Revue de philologie classique.

وقسّم « مولر Müller » الألماني الكتاب أقساماً : قسماً منه كتب في بغداد والقسم الاكبر كتب في مصر . وتوسع في هذا التقسيم « نولدك Noldeke » وحدد كل قسم منها وجاء البحاثة استروب فجعل أقسام الكتاب ثلاثة : الاول يحتوي على القصص التي أخذت عن الاصل الفارسي «هزار افسانه» . والثاني قصص كتبت في بغداد . والثالث قصص اضيفت الى ذلك وكتبت في مصر . وقال ان هناك حكايات أخرى عربية أدخلت في الكتاب مثل حكاية « عمر بن النعمان و أولاده »

وقد بحث هذا التقسيم وتوسع فيه المستشرق البلجيكي شوفان الذي سبق ذكره في كتابهِ السابق . وقال : « ان ما كتب في مصر كتب قسماً منهُ جماعة من الاسرائيليين الذين اعتنقوا الاسلام ، وقسم كتبهُ مسلمون »

ولا يسعنا ان نذكر كل آراء الباحثين ذكراً مفصلاً لكثرتها وتشعبها . ولا شك في أن لهذا الكتاب أصلاً فارسيًا وهنديًا نقل الى اللغة العربية في القرن الثالث الهجري كما يقول الباحثون فقد لاحظوا عند مقابلة الكتاب العربي بالكتاب الفارسي «هزار افسانه» أو ببعض القصص الهندية المعروفة أن كثيراً من القصص العربية هي عينها تلك القصص الاصلية مع تغيير مثيل اقتضاه النقل وعبث الرواة والكتاب والناقلين من العامة والخاصة . وان ما حصل من اختلاف كان في بعض الصور والاسماء القديمة التي استبدل بها غيرها من الصور والاسماء العربية . هذا فيما عدا ما كتب في مصر وبغداد

فن علامات القصص الفارسية أو الهندية التي ترجمت الى العربية احتراؤها على اسماء فارسية مثل « شهر زاد » و « شاه زمان » وغيرهما ، ومثل الكلام على النساء وخيانتهن لأزواجهن وما في ذلك من المكر والخداع والحيل الغريبة والاساطير الكثيرة والاخيلة العجيبة التي تحسب من صور العقل الفارسي أو الهندي . مثل ما جاء في حكاية قمر الزمان : « ثم دقت بكفها الارض فطلع منها عفريت أعور أحدب أجرب وعيناهُ مشقوقتان في وجههِ بالطول وفي رأسه سبعة قرون وله أربع ذوائب من الشعر مسترسلة الى كعبيهِ ويداهُ مثل المداري ورجلاهُ مثل الصواري ولهُ أظفار مثل أظفار الاسد وحوافر مثل حوافر الحمار الوحشي » ص ١٨٨ طبعة بيروت ج ٢ ومثل هذا كثير في هذه القصص . ويظهر أنها لم تنقل الى العربية بنصها الاصلي بل أدركها تغيير وتبديل وزيادة وحذف فدخلت فيها عبارات إسلامية وآراء دينية كما جاء في قصة الملك شهرمان وابنه من مثل العبارات الآتية : « فقال له ذلك الوزير لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً . فتوكل على الله أيها الملك وابتهل إليهِ . فقام الملك وتوضأ وصلى ركعتين ودعى الله تعالى بنية صادقة » . وكما جاء في هذه القصة : « ثم قام وتوضأ وصلى المغرب والعشاء وجلس على السرير يقرأ القرآن فقرأ البقرة وآل عمران ويس والرحمان وتبارك الملك والاخلاص والمعوذتين وختم بالدعاء » (حكاية قمر الزمان والعفريتة المليونة الجزء الثاني طبع بيروت) وفي هذه الحكايات ما يشبه ما في القصص الهندية في أسلوبها وموضوعاتها مثل حكاية التاجر العارف بلغة الحيوان ومثل قصة الوزراء السبعة والتاجر والجني وقصة العائم والجني . قالوا ومن أساليب القصص الهندية تسلسل الحكايات ودخول بعضها في بعض وذكر القصة لالهاء السامع ومنعه من الوصول الى غرضه وذكر العبارات الآتية : « يلزمك ألاَّ تفعل هذا حتى لا يحصل لك مثل ما حصل لفلان » . وكالعبارة المكررة كثيراً في هذه القصص وهي سؤال رجل لآخر « فكيف كان ذلك ؟ » فهذه أساليب هندية يقولون أنها في القصص المنتشرة بين العامة . ويستدلون على ذلك بأن أصل هذه القصص المنقولة الى العربية هندي أو فارسي زيدت عليهِ صور أخرى من الحياة العربية الاسلامية

﴿ القصص المصرية ﴾ قد يجد القارىء المصري لبعض قصص « ألف ليلة وليلة » تشابهاً بينها وبين ما هو مألوف من اسلوب احاديث العامة او الخاصة وما هو معهود من اخلاق وعادات مصرية : سواء كان ذلك في الاحوال الاجتماعية ، او النفسية . ولقد تكون هذه القصص مكتوبة بأسلوب عربي مصري ، او لهجة مصرية ، وهذا ما يحمل على التصديق بأن هذا الكتاب قد احتوى على قصص مصرية ، كتبت في مصر ، بأقلام كتَّاب مصريين وتمتاز هذه القصص بصفات منها ان موضوعاتها ليست خيالية بحتة ، بل مأخوذة من الحياة العامة المصرية وان ليس الغرض منها جذب القراء اليها بما فيها من الغرائب والعجائب التي لا يصدقها إنسان عاقل كما في القصص الفارسية او الهندية المملوءة بالاساطير والخرافات

ومنها ان الكاتب يعتمد فيها على ما في نفسه من اثر الحوادث التي شاهدها في حياته ورسم الاشخاص الذين عرفهم ورآهم وانهُ اذا وجد شيء من الاساطير فأنهُ يكون بقدر الحاجة

ومن صفات هذه القصص ان الاشخاص الذين فيها هم جميعاً ممن يعيشون بكدهم ولا تكاد تجد بينهم من ساعدهم الحظ فأصبحوا من الاغنياء او نكبتهم الايام فصاروا من الاشقياء لأنهم يعتمدون على المصادفات. لهذا تجد الكاتب كثيراً ما يتكلم عن الصناعات . ويذكر رجالاً من التجار يتكلم عن تجارتهم وسلعهم كما في قصة «الاحدب» وكما في الكلام على «ابو قير» ومصيبته «وابو صير» وحمامه وغير ذلك. ومن هذه القصص قصة «معروف» الاسكافي المشهورة . وبمناسبة ذلك قال بعض الباحثين ان غير القصص المصرية مملوء بالخيال والمبالغة والأثرة او حب النفس وانها عبارة عن حلم شعب خمول يود ان يعثر في اثناء فتحه على المعادن والجواهر ليصبح من الاغنياء

ومن صفات القصص المصرية ان شخصية الكاتب فيها ظاهرة تمثل نفسه وكأنهُ يدرس موضوعاً شاهدهُ فهو يتوسع في شرحه

ومنها ان اكثر هذه القصص قصيرة وان العبقة المصرية ظاهرة فيها : من فكاهة ونقد حلو وخفة روح

ومن اعظم مميزاتها ان كاتبها عارف بالافتنان والاساليب القصصية عالم بكيفية سرد الحوادث كما قال العالم الالماني «كرامر» وكما يرى في قصة معروف الاسكافي وعلي الجوهري وقصة التاجر علي المصري والتاجر حسن الجوهري وقد لاحظ الباحثون ان القصص المصرية كثيراً ما تتشابه في الحوادث والموضوعات ووجدوا ان في بعضها اطراء للمرأة المصرية كما في الكلام على قمر الزمان

وهناك مميزات اخرى تظهر للقارىء في اثناء قراءته فيشعر بأنها كتبت بأقلام مصريين وعقول مصرية

﴿القصص الاسرائيلية المصرية﴾ تمتاز القصص الاسرائيلية التي كتبها اسرائيليون مصريون قد يكون بعضهم اعتنق الاسلام بأشياء

منها: ذكر الاسماء والاماكن العبرية كسليمان وداود وآدم وبيت المقدس وذكر المسائل التاريخية العبرية كوصف الارض وارتكازها مما اخذ من كلام وهب بن منبه وكمحاربة العفاريت بعضها بعضاً وتحول الانسان الى رماد وكحكاية الشرير الذي اختطف رجلاً وطار في الهواء فأصابته ضربة من حربة ملتهبة ارسلت اليه من الملائكة. وكالقصة التي ذكر فيها : ان اعرابياً زار هاروت وماروت اللذين كانا مسجونين في بئر في بابل . فلما رأى طولها العظيم العجيب فزع من هذا المنظر فذكر الله تعالى فانطوى جسمهما وصار على شكل مربع وكان يرافق العربي في هذه الزيارة يهودي . وقد رأى بعض الباحثين ان الغرض من امثال هذه الحكايات التهكم بالمسلمين

ومن اشهر الحكايات الاسرائيلية : حكاية «بلوقيا» المذكورة ضمن قصة «حاسب كريم الدين

ابن دنيال الحكيم» اذ يظهر ان كاتبها وقف على قسط وافر من الاساطير الاسرائيلية كذكر الحياة وأثرها والسعي في الحصول على خاتم سليمان وذكر الغرائب والعجائب . فمن امثال ذلك ان الله خلق جبلاً قدره مسيرة خمسمائة عام وهو من الثلج والبرد وهو الذي رد حر جهنم عن الدنيا : ولولا ذلك الجبل لاحترقت الدنيا من حر جهنم وان الارض سبع طبقات يحملها ملك وتحت الملك صخرة وتحت الصخرة ثور وتحت الثور حوت والحوت في بحر تحته هواء وتحت الهواء نار وتحت النار حية عظيمة ولولا خوف الحية من الله تعالى لا بتلعت جميع ما فوقها وان الحية فتحت فاها فأدخلت جهنم في بطنها وقيل لها احفظي جهنم الى يوم القيامة . فاذا جاء يوم القيامة امر الله الملائكة ان يأتوا ومعهم سلاسل يقيدون بها جهنم الى المحشر (راجع القصة في الجزء الثالث من ألف ليلة وليلة صفحة ١٢٠ من طبعة بيروت)

ومن اساطير هذه القصص الاسرائيلية انهُ لما توفى سليمان عليهِ السلام وضعوه في تابوت وعدُّوا بهِ سبعين بحراً وكان الخاتم في اصبعهِ ولا يقدر احد من الانس ولا من الجن ان يأخذ هذا الخاتم... وانهُ وجد في بعض الكتب ان بين الاعشاب عشباً كل من اخذ منهُ شيئاً وعصره واخذ ماءه ودهن بهِ قدميه فانهُ يمشي على اي بحر خلقهُ الله تعالى ولا تبتلُّ قدماه ولا يقدر أن يحصل انسان على هذا العشب الاَّ اذا كانت معهُ ملكة الحيات . . . . . وثمة كثير من هذه الاساطير الاسرائيلية . ومن الادلة على انها اسرائيلية وان كاتبها اسرائيلي معنوي انهُ جاء في هذه القصة ان « بلوقيا » عند ما دخل بيت المقدس كان يقرأ في التوراة وقد سئل عن اسمه فقال « بلوقيا» وانهُ من مدينة مصر

هذا ورغم كل هذه الجهود التي بذلها العلماء في البحث في هذا الكتاب لا يزال اسمه مجهولاً ومؤلفه مجهولاً والزمن الذي كتب فيهِ مجهولاً ايضاً

ولقد يلتمس الانسان عذراً لبعض الباحثين الذين قالوا ان الكتاب حديث العهد بالتأليف فان حكاياته على اختلافها في الموضوعات متشابهة الاسلوب في جملتها حافلة بروح العامة من الكتّاب المسلمين خاصة بلهجاتهم . وقد يكون اكثر هذا الروح انتشاراً هو الروح المصري

والغالب على ظننا ان « هزار افسانه » الذي يقولون انه اصل هذا الكتاب ذاع امره بين الخاصة في العصر العباسي ولم تنشر النسخة الاصلية منهُ كما نشرت «كليلة ودمنة» وغيره

ثم اعجب الناس بما نشر من تلك الاحاديث لغرابتها وانتشرت في المجالس والمحافل وزاد عليها الفرس وابناؤهم من التجار [redacted] الخاصة كما فعل [redacted] الذي كتب كتاباً « اختار فيهِ الف سمر من اسمار العرب والعجم والروم وغيرهم . واحضر السامرين فأخذ عنهم احسن ما يعرفون ويحسنون »

ولعلَّ الكتاب كتب اولاً بعبارة صحيحة ثم تناوله الناس وغيروا وبدلوا فيهِ واضافوا اليهِ كثيراً من احاديثهم وحكاياتهم العامية ليكون اوقع في نفس العامة فظهر على ما هو عليهِ الآن